

اشرف العناني

سيناء... حيث انا

سنوات التيه

سيرة مكان

سيناء حيث أنا

[illegible]

مقدمة: د. [illegible]

ليس من قبيل الصدفة أن تحمل معظم أسماء الناس في سيناء دلالة خاصة، أسماء مثل سالم، سلَّام، سليمان ,سلامة، مسلَّم، سليم، كلها مشتقات من "سلام". إنه طموح فطري نحو الأمان، الناس هنا تعبوا من الحروب، تعبوا من الوقوف علي حافة هاوية ,يرغبون في الخلاص من الحالة التاريخية التي رهنتهم بجغرافيا سياسية وأمنية حادة القسوة. يخطئ من يظن أن أهل سيناء عدائيون بطبعهم، الظروف التي سنفصلها في هذا الكتاب، في سنوات قريبة وعصيبة، هي ما وضعتهم في تلك الخانة قسراً، أذكر منذ سنوات ليست بالبعيدة جداً كنَّا »كلما تزايدت الضغوط« نحزم أمتعتنا، نأخذ سيارة أحدنا ونهيم علي وجوهنا في وديانها ,جبالها، جهاتها الرحيمة، دون أن نجد من يضايقنا

أو ينكِّد علينا رحلتنا ,ثمة مواقف محفورة في الذاكرة، مرة كنا نمرح (نبيت) في أحد المطارح ,يومها لم تكن الأغطية معنا كافية، حيث لم نكن نتوقع هذا البرد، تنبهنا علي من ينادي: "يا ولاد!"، رحَّبنا بالصوت الغريب الذي عرفنا من هيأته أنه من أهل المكان، قال لنا: قوموا معي إلي المقعد، الجو الليلة بارد ,تحججنا خجلًا: "معنا أغطية كافية"، لكنه أصرَّ، ولمَّا كان "الضيف أسير المحلي ذهبنا معه، في آخر الليل بعد أن عشَّانا وقَهْوانا جلب أغطية كان من نصيبي أحدها، دفء الغطاء أكد لي أنه سحبه من فوق أحد أطفاله أو أهل بيته، تألَّمت صامتًا لتخيلي كيف سيقضون ليلتهم الباردة دون غطاء! لم أنمْ، ظللت طيلة تلك الليلة أؤنِّب نفسي، عرفت فيما بعد أن هذا لم يكن حالي وحدي، كان حال اثنين آخرين من أصدقائي لم يتكلما هما أيضًا خوفًا من أن يجرحا الرجل الذي كان ينام بيننا. أين ذهب كل هذا؟ الآن، لم نعد نجرؤ حتي علي التفكير بمثل هذه الأحلام، مخاطر لا حصر لها ستطاردك لو فكَّرت ,ليس انتشار السلاح وحده المسئول، التحولات الدرامية التي حدثت في هذا المربع الحرج هي الأب الروحي لهذا الظلام الكثيف.

علي مدي سنوات أقل ما توصف به هي أنها سنوات ثقيلة كنت مثل غيري أعيش هنا، أراقب وأشاهد التحولات العميقة في المكان وناسه، كيف بعدما كنا نسمع عن حادثة قتل أو نزاع قبلي في سيناء بطولها وعرضها علي مدي سنوات متقطعة ومتباعدة جدًا أصبحنا نعيش مأساة حوادث القتل المتواترة بشكل شبه يومي؟ كيف صعدت شرائح اجتماعية لتقلب الطاولة وتحيل طابع الحياة الهادئ الرزين في سيناء إلي هوس 4""٤تاللاندكروزر؟ المارادونا! الأسلحة الثقيلة! كيف نمت ثقافة اللامبالاة في مجتمع محافظ ومنضبط كالمجتمع السيناوي؟ كيف اختلطت ذقون الملتزمين دينيًا بذقون أخري استوعبت سريعًا شرعية اللحظة التي تمر بها سيناء بعد سيطرة حماس علي غزة وتواتر بزنس الأنفاق؟ كيف أغرق طوفان الترامادول الواقع العطشان للحظة نجاة من اللهاث وراء الأخبار الدرامية التي تلاحق الناس هنا؟ كيف اختلط البزنس بالسياسة والأمن وكل مناحي الحياة في هذا المربع الحرج؟

في هذه الفانتازيا التي سميتها في أحد المقالات "فانتازيا المنطقة ج" كنت أعيش وأري بعيني كما يري غيري، وكان أمامي أحد خيارين، الأول الصمت والاكتفاء بالكتابة الأدبية، وهو خيار وجيه ومريح، حجارة العثرة عديدة يا صديقي، ماذا ستفعل كتباتك في واقع يندفع كسيل خارج مجراه؟ لكن قناعتي بهذا الخيار لم تصمد طويلًا، قوة دفع هائلة كانت تحركني لأنحاز للخيار الثاني، الكتابة! نعم الكتابة، حتي ولو لم يقرأ أحد؟ حتي ولو لم يقرأ أحد.

لكن أين أنشر ما سأكتبه؟ لن يقبلوا ما تكتبه يا عزيزي، قلت لنفسي: ما الحل إذن؟ هل أكتفي بدفنها في الأدراج؟ ثم كانت الصدفة التي أظنها أحدثت خدشًا في واقع خشن، مدونة صغيرة علي الإنترنت أكتب فيها مقالاتي وانطباعاتي عن اللحظة التي تمر بها سيناء حصراً، سميتها "سيناء حيث أنا"، بدأت في كتابة المقالات بها عام ,2007 وشيئًا فشيئًا انتبه الناس لها، في ظني وفي ظن الكثيرين ممن تابعوها كانت مثل دفتر أحوال سيناء الأخري التي لا يعرفها الإعلام، سيناء التي من دم ولحم، علي هذا النحو استمرت المدونة (٢٠٠٧ ــ ٢٠١٢) حاولت من خلالها أن أحدث ثقبًا في حائط سوء الفهم السميك والعالي، فكانت خمس سنوات هي عمر المدونة التي استمرت واستمر تداول الناس معها، تفاعلوا وتفاعلت، لحظة بلحظة دونت المحطات الأساسية، شقت دربًا صعبًا خارج الدروب المُعَبَّدة، باختصار فعلت ما ينبغي عليها أن تفعله، استدعاني الأمن مرتين بسببها، إحداهما كانت في عيد ميلاد صغيري مهند الثالث، وبالمصادفة العجيبة كان ذلك نفس يوم الاجتياح الإسرائيلي لغزة! حذرني، أخرج خطاب اعتقال جاهزاً من درج مكتبه حتي أصدق، قال - وصوته يتداخل مع صوت المذيع الذي يتحدث عن أخبار الاجتياح - خليك في حالك وربِّ عيالك، هززت رأسي، لكنني لم أفعل، لم تكن بطولة، كان أحساس بالمسئولية يتحرك في رأسي كدودة تخدرني وتدفع عني »ولو مؤقتًا« شرور الخوف، توقفت فقط في لحظة كثيفة العتمة لم أستطع الكتابة فيها فأغلقت المدونة، كان ذلك بعد انتخابات ,2010 ثم عدت لفتحها مرة أخري بعد الربيع التونسي.

هي تجربة أظنها - بالنظر إلي كل ظروفها - رحلة ضرورية في حقل ألغام، سرد يومي تغذي فقط علي قطعة السماء التي كم تمنيت لو يتركوها علي حالها بعيداً، سرد استمر رغم حجارة العثرة التي لم يكن الأمن وحده من وضعها في الطريق، في حقل الألغام تعثرت قدمي بحجارة عثرة أخري عديدة حتي كان عام ٢٠١٢ الذي انتهت فيه رحلتي مع مدونتي "سيناء حيث أنا"، حيث قررت إغلاقها إلي الأبد، كانت قناعتي هي أن هناك جيلًا جديداً في سيناء باستطاعته أن يفعل ما عليه، ثمة وعي نما وينمو وهذا صحيح، ثم هناك مشاريعي الإبداعية التي توقفت، وليس من المنصف استمرار هجرها، باختصار هي رحلة أدعوكم للسفر عبرها وقراءة محطاتها بتأنٍ وحياد، راجيًا أن تكون عونًا في فهم ما يحدث في سيناء فهمًا موضوعيًا بعيدًا عن التشنج.
أخيرًا، أود أن أشير إلي أن ترتيب المقالات زمنيًا هنا هو ترتيب تنازلي من الأحدث للأقدم، وهو ترتيب مقصود، ثم هناك ٤ مقالات في بداية الكتاب ليس لها علاقة بالمدونة ستجدونها من دون تاريخ، تمت كتابتها بعد إغلاق المدونة، وأظن أن نشرها هنا يفيد في إضافة تفاصيل تعين علي رسم صورة أظنها كافية للفهم.

أشرف العناني

الشيخ زويد: ٢٣ أغسطس ٢٠١٢

مقدمة كتاب : سيناء حيث أنا : سنوات التيه / الكتب خان ٢٠١٥